

السيدة من تلّ أتيب

السيدة من تلّ أتيب / رواية عربيّة
ربيعي المدهون / مؤلّف من فلسطين - بريطانيّ الجنسيّة
الطبعة الأولى ، 2009
حقوق الطبع محفوظة



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :

بيروت ، الصناع ، بناية عيد بن سالم ،

ص. ب : 11-5460 ، العنوان البرقي : موكيالي ،

هاتفكس : 752308 / 751438

التوزيع في الأردن :

دار الفارس للنشر والتوزيع

عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفكس : 5685501

E-mail : info@airpbooks.com

موقع الدار الإلكترونيّ : www.airpbooks.com

خطوط الغلاف والإشراف الفنيّ :

سماوية®

تصميم الغلاف : رامي المدهون / بريطانيا

الصفّ الضوئيّ : المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان

التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت ، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر .

ISBN 978-9953-36-298-X

أصل الحكاية

١

كانت أمه قد انتهت من غسل ثيابه التي سيأخذها معه صباحا الى القاهرة ، وتستعد لنشرها على حبل الغسيل ، حين استوقفه سؤالها : «وين رايح ع الصُّبح يا وليد؟» .

توتّر ، وداهمه قلق مستعجل أوقفه قرب عتبة الباب : «يا فتّاح يا عليم . ايش بدّها منّي ع هالصبح؟!» . وانتظر أن تكشف بنفسها ، كعادتها ، عما تخفيه خلف السؤال ، كأن تقول له : «خوذ يّه جوز أرانب وبيعه في السوق» .

كان يكره البيع والشراء وذبح الأرانب وأكل لحمها حتى بملوخية المصريين . ويكره هذا السؤال بالذات : «وين رايح ع الصبح يا وليد؟» . وما زال يذكر ذلك اليوم غير البعيد ، حين فاجأته أمه بالسؤال نفسه ، وكان يقترب من عتبة الباب نفسها ، وإن اختلف الوقت في ذلك النهار : «وين رايح ع المسا يا وليد؟» . انتظر كما ينتظر الآن . سارعت تطلب إليه أن يرافقها إلى بيت قريبيهم المتوفى أمين دهمان ، لتقديم العزاء الى أبنائه وأحفاده الكثيرين ، (مع أنهم لم يكونوا بحاجة الى عزاء ، فقد توفى كبيرهم أمين ، عن عمر تخطى المئة عام بشهور) .

ذهب وليد الى مجلس عزاء الرجال ، واندست أمه بين النساء

الموحدات بالسواد في مجلسهن . استمع وليد إلى ما قيل من قبل مئات
المرات في عزاء آخرين : « كان رحمه الله وكان وكان . . » ، ولم يكن في
أمين شيء مما قيل . فقد كان بخيلا ، لثيما ، وحقودا حتى النزع الأخير .
وكان في حياته أكذب من أي زعيم عربي يصرّ على تحرير فلسطين ، حتى
أن أحدا لم يترحمّ عليه عند وفاته ، وقال الجميع « الله يجحّمه » . ومع
ذلك ذهبوا أفرادا وجماعات لتقديم العزاء في وفاته . غيروا جميعا أقوالهم
في الطريق ، وتهامسوا قائلين ، إنه الفقيد الذي ينبغي على الجميع الترحّم
عليه ، وطلبوا له الغفران .

قدّمت أم وليد العزاء لذوي الفقيد : حفنة من بكاء تساقط في بحيرة
من دموع ذرفت نساء أخريات حزنا على موتى آخرين .

أخذ وليد ، يومها ، عهدا على نفسه ألا يحضر حتى ماتم أبيه يوم
وفاته . وأن يكتفي بتقديم العزاء لنفسه بنفسه وتلقّيه منها وشكرها عليه ،
لكي لا يسمع ما يقال عن أبيه مما ليس فيه . لكنه حين توفي أبوه فعلا ،
ولم يكن ذلك ليخطر له على بال ، أنكر وليد عهده وتخلّى عنه ، وظل
يستمع خاشعا ثلاثة أيام متتالية لكل كلمة طيبة قيلت عن أبيه .

استدار نحو أمه وأجاب : « لا رايح ولا جاي » .

ابتسمت بطرف عينها ، مطمئنة إلى أنه لن يغادر البيت قبل أن
يستمع إلى ما ستمليه عليه .

انحنّت على طست الغسيل . تناولت منشفة قطنية كبيرة وعصرتها
بين يديها . تصاعدت في البيت سحابة من روائح مسحوق زهرة الغسيل
الزرقاء . أخرجت من كيس قماشى ملقطين خشبيين . وضعت واحدا في
فمها وألقت بالمنشفة على حبل الغسيل . وضعت الثاني على طرف
المنشفة ، وقالت بلسان مربوط خلف أسنانها : « امفاره ثفت افوك في
الفيثم . . » .

أضحكه لسانها الأعرج يتعكّز بالكلام على ملقط . سارعت تخرج
الملقط من فمها ، وتضعه على الطرف الآخر للمنشفة : « امبارح شفت
أبوك في الحلم وسألني عليك . . اللهم اجعله خيرا » .

« الحمد لله أبوي مش ناسيني » . همس لنفسه .

« ثلاث مرات سألني عليك . وحياء الله ثلاث مرّات » .

حاول أن يأخذها بعيدا عن حلم حلمته خصيصا له ، فقال مازحا :

« أُخبرّتيه يمه إنني صيرت آخر سنة في الجامعة ورح اتخرج ؟ » .

أعادته إلى حلمها مفسّرا : « روح احكي له بلسانك . زوره واقرا

الفاتحة ع روحه بينوبك ثواب » .

فكّر في تحديها بنزق صبياني لا يكلفه سوى كلمتين : « بدّيش

أروح » ، ويغرب عن وجهها . تردّد إذ تذكر قاموسها التقليدي الذي تستعير

منه شتائمها ، كأن تقول له « بدّه أتبدك » . وهو لا يعرف البدّة التي ستبدّه ،

ولا كيف ستفعل ذلك ولماذا ، وإن كان سيشعر بجسده يخور وبأطرافه

تتخلّى عنه .

خاف من البدّة . عدل عن استعارة نزق صبياني ، وقرر الوقوف في

منتصف الاحتمالات : « الدنيا الصبح يمه . . بروح بعد الظهر . . أو بعد

شوي لما ارجع » .

« وبتهون عليك روح ابوك ؟ »

« يمه ابوي مات الله يرحمه ، بدّي اروح اشتري غراض السفر من

السوق » .

« إن ما رُحّتش هالقيت رح يروح النهار وتساfer من غير ما تزور قبر

ابوك » .

انحنّت على الطست ثانية . تناولت قميصا وألقت به على الحبل

بعصبية : « بتروح دُغري وبتزوره » .

«طيب . . حاضر» .

«ما دام ابوي سأل عليّ لازم أسأل عليه» . همس لنفسه ساخرا
واجتاز العتبة إلى الخارج .

أغلق وليد الباب خلفه ، ومضى وفي نيته أن يذهب إلى أي مكان ،
وأن يفعل أي شيء ، ما عدا أن يبدأ يومه بلقاء صباحي مع موتى المدينة .
وما إن ابتعد عن البيت قليلا ، حتى لحق به صوت أمه محذرا : «ما
تنساش كلام امك يا وليد . . .» .

٢

فكر وليد في الذهاب الى السوق . أزاح فكرته طيف أليف حمل إليه
الحلاق سعيد دهمان ، بشعره اللولبي المسافر في الفضاء ، وقامته الطويلة
النحيلة مثل عامود الكهرباء . تأمله يشطف المصطبة الاسمنتية الممتدة أمام
صالون الحلاقة ، بماء معطر بورق الليمون ، ويعيد ترتيب كراسي القش
الصغيرة عليها . يتشبع الهواء بنكهة الربيع ، ويتحوّل المكان الى منتجع
سياحي صغير . يجلس سعيد ويشعل سيجارة ، ويترك المنتجع يلم له
الزبائن من الشارع العام .

أغرى المشهد وليدا . أدرك كم سيفتقد سعيد بعد السفر . قرر أن
يذهب إلى صالون الحلاقة . سيرحب به صديقه وقريبه كثيرا : «صباحك
فلّ ورزق الجميع ع الكريم» ، ويسمعه حكاية جديدة ممتعة يتفتح لها قلبه
كما تتفتح زهرة قرنفل على حافة الفجر . ويطمئنه ، كالعادة ، إلى أنه لم
يرو الحكاية لأحد من قبل . لكنه سيشترب عليه أن يبقئها سرا ، فقد
يحتاجها في لحظة تخلت فيها عنه الحكايات .

كان وليد يطلق عليه «حكواتي الخميم» ، وكان سعيد يطرب لإيقاع
التسمية المشحون بالثرثرة . كان يلمّ حكايات الخميم عن ألسنة زبائنه وعن
شفاه الناس . يغسلها بما علق بها من انفعالات ، ويحتفظ لنفسه برحيق
الكلام . ثم يضيف إليه خلطة سرية من بهارات المزاج . وحين تصبح
الحكاية حكاية ، يرويها لزبائنه على أنها جديدة ، ويحلف ألف يمين بالله
أنها لم ترو من قبل .

وإذ تذكر وليد أنه سيلتقي سعيد مساءً ، وأنه وعده بذلك فعلا . وأن صديقهما المشترك فوزي عاشور ، سوف ينضم إلى اللقاء . وأنهما حتما سوف يستمعان من سعيد إلى حكاية جديدة ، او حتى مغسولة ومكوية على طريقته على الأقل ، تراجع عن قراره . لم يكن ممكنا حقا ، الاستمتاع بحلقة من ثرثرة سعيد مرتين في يوم واحد ، حتى لو غسلها بتوابل السخرية والأكاذيب الملونة التي لا يدفع ثمنها أحد . قال لنفسه ، وارتاح لما قال وأثنى عليه .

توقف عن السير . التفت الى زقاق على يمينه . أدرك أنه قريب جدا من بيت محمد خديجة . فكّر في زيارته . قال إنها ستكون فرصة لقضاء بعض الوقت معه قبل الوداع .

قلّب خياره مرتين فقط ، لأن صوت أمه تدخل وأوقفه : «ما تنساش كلام امك يا وليد . . .» . خشي إن تجاهل طلبها ، أن تقلب الدنيا على رأسه في يومه الأخير .

خطر له أن يتحايل على الأمر . أن يكذب على أمه بمزاح غير تقليدي ، كأن يقول لها مثلا : «زرت ابوي يمة وقريت الفاتحة ع روحه . كانت صحته منيحة ، وكان لابس بدلته الكحلي المقلّمة بخطوط رمادية رفيعة . ومد ايده في جيب جاكيتته ، وطلّع مصاري وأعطاني مصروفي . . ويسلم عليك يه كثير» .

وماذا لو صدقته وألحت عليه بالمزيد : «ما تخبّيش على امك يا وليد . . ايش وصاك ابوك؟» .

سيقول لها ما يفقدها ما تبقى من عقلها بعد وفاة أبيه : «سألني والشر طالع من عينيه . . إمك اتجوّزت بعدي يا وليد؟» .

عندها ، لن تتردد أمه في استخدام مخزون لعناتها الخاصة ، التي لا تستخدمها إلا في موقف كهذا : «جيزة أتجز رقتك واتجز جنازتك انشا

الله . . اتريّحني منك وتاخذك عند ابوك» .

أضحكته مخيلته : «إمي هذي عجيبة والأعجب منها قاموسها . إن قلت لها جيزة ، ردّت عليّ ، جيزة اتجز رقتك . وإن قلت لها طالع ، بترد : تطلع روحك . وإن قلت نازل ، بتجاوبني ، تنزل المية من زورك . وإذا قلت لها نايم ، بترد نامت عليك حيطه . وإن قلت انا ماشي يه ، بتجيب اجلي وبتقول : نمشي في جنازتك .

لكن أمي يوم ما تكون راضية عليّ ، بتقلب القاموس الأسود أبيض : الجيزة بتصير نفرح في جيزتك . وطالع ، بترد عليها يطلع لك السعد . ونازل ، بتصير نازل خفيف ع قلبك . ونايم بترد عليها نوم الهنا يه . وان قلت الها ماشي بتقول لي نمشي ونزغرد في زفتك وانت عريس انشا الله» .

«طيب . . ولو سألتك إمك يا وليد ، مين شفت في المقبرة من الزوّار أو المقرئين؟» . رح تحتاج كذبة أو كذبتين على الأقل . وان ما زبطت يا ويلك من قاموس أمك» .

صمت وليد ، فكّر وقرر : «بلاها يا وليد روح زور ابوك واخلص من لسان امك . .» .

واصل سيره بخطوات عسكرية ثابتة (كثيرا ما قلدها الآخرون سخرية أو إعجابا) ، حتى بلغ دكان حبّوب عند بداية الشارع العام . وهناك استقر رأيه (الذي لم يكن رأيه) ، على تنفيذ رغبة أمه .

توقف عند الركن الغربي للدكان . أسند ظهره إليه . أشعل سيجارة «روثمانز» ، وأخذ يراقب المشهد أمامه عبر سحابات الدخان .

همّ بمواصلة طريقه . استوقفه ظهور منى المفاجئ ، (كان اسمه عبد الحميد عواد . وكان مثليا انكرت عليه المدينة ومخيماتهما صفة الذكورة فأثنته) . كان يحمل على كتفه اليسرى بطارية راديو سوداء من النوع

القديم ، في طريقه ، كعادته ، الى محطة بنزين الدوار ، لإعادة شحنها حيث يتوفر دينامو شحن البطاريات الوحيد .

ارتعش جسد وليد ، وبللته ذاكرته بمطر من خجل قديم . تلفت حوله خشية أن يُضبط متلبسا انفعالاته . «ايش اللي جاب منى هالقيت؟ ليش مصرّ هالمنيك على جرح كرامتي . . هي مرة وحدة حصلت بالغلط . . ايش بدو مني . .؟» .

مَجّ نفسا عميقا من سيجارة ترتعش بين أصابعه ، ونفثه مثل شحنة ندم عميق : «ليش سخّمته يا وليد؟ كنت تكره لولاد اللي بيحكوا الكلام الرزيل ، وما ترضاش تلعب معهم . اخترت محمد خديجة من بين كل أولاد الحارة وخليته أعز صديق ، لأنه نيّاته صافية ولسانه نظيف مثل الحليب . ياما صرّخ عليك ابوك من ورا حيط غرفته وانت بتلعب في الحارة : ما تلعبش مع لولاد السفلة يا وليد . كان كلام ابوك مقدّس ، وكان لا يكرر صرخته . ايش رح تقول لبوك لو قام من قبره وسمع اللي ما بينسمع ولا بينعاد؟! بدك تموت ابوك كمان مرة يا وليد؟!» .

كانت ليلة خريفية عاصفة ، كنست ريحها الشوارع والأزقة والحارات من المارة والمتسكعين ، ونظّفتها من الدجاج والقطط والكلاب . وحين اطمأن وليد إلى أن أحدا لن يراه ، حث الخطا يجمع بكفيه طرفي كنزته الصوفية المفتوحة كلما عصفت به الريح . وراح يتعقب منى من مسافة غير بعيدة من دون أن يرفع عينيه عنه . يتأمله وهو يمشي بدلال أنثى تحمل على رأسها جرة ماء فخارية . ردفاه يتمايلان على وقع خطاه ، وعيناه تستغفلان كتفيه وتسرقان نظرة الى الورا . تطمئنّان الى تعلق الطريدة بالشباك ، والطريدة وليد يرتعش بالتردد . فكّر غير مرة في التراجع ، فاتخذت رغبته القرار نيابة عنه ، وشدّته إلى آخر حدود المغامرة . وحين

أصبحا على مقربة من عبّارة مفرق بيارات الفراء ، فقد وليد قدرته على التردد ، واستسلم لمنى يقوده بنفسه نحو قفاه . وهناك ، داخل العبارة التي يبلغ قطرها المتر تقريبا ، تحت خط سكة الحديد ، على بعد خمسمائة متر من محطة قطارات خان يونس ، ضاع لهاث وليد المتلاحق في صفير الريح ، وذابت رعشة جسده في عتمة العبّارة .
دمعت عيناه . اعتذر لأبيه .